أعلام الأدب

هومـــــيروس

للأستاذ دريني خشبة

« إلى أستاذي الجليل أحمد حسن الزيات أهدي هذه الفصول »

أَلم ينظم هوميروس غير الإلياذة والأوديسة ؟

لقد ذكر كالينوس الشاعر اليوناني القديم (٦٦٠ ق . م) منظومة لهوميروس تدعى (Thebais) لم يعثر عليها إلى عصرنا هذا . ويظن بعض المؤرخين أنها لا تعدو أن تكون الإلياذة في صورة أضخم نظمها للانشاد في طيبة اليونانية ولذلك أطلق عليها هذا الاسم

وعثروا على آثار للشاعر سيمونيدز (أمورجوس) الذي كان يعيش في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وردت فيها مقتطفات من هوميروس يُظن أنها من الإلياذة — منها ذلك البيت المشهور : « وكما تَسَّاقط الأوراق (في الخريف) فكذلك تَسَّاقط أرواح البشر »

وبعد ذلك بقرن كامل (٥٥٦ — ٤٦٨) رَوى شاعر آخر يدعى : سيمونيدز (من كيوس) بالتواتر عن هوميروس شعراً من ملحمة مفقودة لا تمت بصلة لا إلى الإلياذة ولا إلى الأوديسة

أما بندار (٥٢٢ — ٤٤٨ ق . م) ، وهو زعيم الشعر الغنائي في اليونان القديمة ، فقد كان مشغوفاً بهوميروس وإن لم يمنعه شغفه به من مآخذ أخذها عليه فيما يتعلق بأوديسيوس ... وقد ذكر لهوميروس ملحمتين طويلتين عن أخيل ما تزالان وا أسفاه مفقودتين إلى اليوم ... وإذا كانت الأوديسة قد بلغت هذه الغاية من الإبداع في سمو القصص وكثرة الوقائع وهي لبعض أبطال الإلياذة ، فما بال هوميروس في ملحمتيه في أخيل وهو بطل أبطال الإلياذة جميعاً ؟ ! أية ثروة أدبية من شعر البطولة قد فقدها العالم !! لقد كان بندار يعجب بهاتين الملحمتين (الإلياذة الصغيرة والأثيوبيون) إعجاباً فائقاً جعله يشدو بهما كما يشدو عصفور الكناريا باللحن الموجع ...

أما إسخيلوس فقد كان يقول عن مآسيه التي نيفت على الثمانين ولم يصلنا منها ويا للأسف إلا سبع : « إنهن فتات من موائد هوميروس الحافلة ! ! » والثابت أنه استخدم أبطال الملاحم الهومرية في أكثر ما ألف إن لم يكن في كل ما ألف ... فهل كانت جميع مآسي اسخيلوس عن أبطال الألياذة والأوديسة فقط ؟!

وقد ألف سوفوكليس أربعاً وعشرين ومائة مأساة ... وكانت ثلاثياته[1] تحوم حول أبطال هوميروس كما كان يفعل إسخيلوس، فهل كانت أبطاله في هذه الأربع والعشرين والمائة المأساة كلها من الألياذة والأوديسة ؟

يقول المؤرخون حين يعرضون لهذا إن كلا من إسخيلوس وسوفوكليس كان يعد كل ما وصل إليه من ملاحم العصر القديم هومريا ، ولو لم يكن من نظم هوميروس ... ومن هذا التراث العظيم استمدا موضوعات مآسيهما ... بل يقولون إنهما كانا يدعوان ذاك العصر كله العصر الهومري ... على أنه ليس في هذا الكلام دليل على أن هوميروس لم ينظم غير الإلياذة والأوديسة ، وإلا لم يقل إسخيلوس إن مآسيه فتات من موائده

قاعة المصاغ والحلي . وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح : هذا ألطف ما في الدار . وصلنا إلى تمثال إلهة الجمال الفريدة في العالم أجمع ، فسألت دليلنا ماذا تساوي هذه الصورة إذا عرضت للبيع ؟ فقال إنها تساوي ثروة أغنى رجل في العالم . تساوي كل ما يملكه الإنسان . تساوي ما يقدر لها حائزها ويطلبه ثمناً لها ، إذ لا حد لقيمتها »

وأنت تستطيع أن تقدر المرارة التي تخبث النفس الزكية حين تهتز لقطعة من الشعر أو الموسيقى أو لقطعة من التصوير والنحت؛ تحس بهذه المرارة إذا ابتلاك القدر بأن تسير وشخصاً تجافى نفسه كل نوع من أنواع الجمال ، فلا يرى من جمال الشعر إلا البيت المهتك السخيف ، ولا من جمال الموسيقى إلا النغم الصاخب المنفر . ولعلك تحس بالمرارة التي كان يشعر بها قاسم أمين إذ كان يساير رجلاً استغلقت عليه آيات الفن الخالدة غير بعض حلي من الذهب والفضة لأن لها بريقاً يلمع ! حقاً إن قاسماً كما أسلفنا القول كان يعيش في جو خاص لا يشاركه فيه إلا القليل

احمد هاكى

(١) كانت مآسي اسخيلوس وسوفوكلس تتركب من ثلاثيات والثلاثية Trilogy عبارة عن ثلاث مآس تؤلف موضوعاً واحداً

الحافلة ، لأن إسخيلوس كان يعنى ما يقول أكثر مما يحاول مؤرخو زماننا هذا أن يفهموا من عبارته وجهها الصحيح ، وهو ولا شك كان يعنى هوميروس نفسه ، ولم يعن عصره كله وبعض العصر الذى سبقه وبعض العصر الذى جاء بعده أو ما يسميه المؤرخون العصر الهوميرى ، أو ما يزعمون أن إجزنوفان (القرن السادس) كان يدعوه كذلك

هذا وقد اعترف تيوسيديدز لهوميروس بالإلياذة وبالأوديسة وبترتيلة أبوللو ؛ أما أفلاطون فلم يستشهد بأكثر من نتف من الإلياذة والأوديسة ؛ وجاء أرسطو فاعترف له بالإلياذة والأوديسة وملحمة فكاهية تدعى (مارجيتس) ضاعت فيما ضاع من تراث الإغريق ... أما أرسطرخوس الأسكندرى العظيم (١٦٠ ق . م) فلم يعترف له بأكثر من الإلياذة والأوديسة

وعلى ذكر أفلاطون وأرسطو نروى أن كلا منهما كان يقتنى نسخة من الإلياذة مختلفة فى كثير من فصولها عن النسخة الأخرى ، ولم يستطع المؤرخون تعليل ذلك بعد ، اللهم إلا ما يعزى إلى بزستراتوس — منظم أشعار هوميروس فيما يقال — من أنه تناول الإلياذة بشيء من التحوير ، وأقحم عليها زيادات فى تمجيد الأثينيين ... وهو ما يشك فى صحته الأساتذة لانج وموراى وبورا والعلامة كارل موللر

على أنه ليس بزستراتوس وحده الذى اتهم (بتحشية) الإلياذة والتزوير على هوميروس ، بل إن صولون نفسه قد اتهم بمثل ذلك ... بل اتهمت به كل مدينة يونانية ... وما حدث للإلياذة من ذلك القبيل هو ما حصل لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم حينما اختلفت الأحزاب وأراد كل منها أن ينصر مذهبه بأثر من كلام الرسول ، فكثر التلفيق وشاع الوضع ، ثم نشأ بعد ذلك ما نشأ من مدارس الحديث وشمر الأئمة للتجريد والتضعيف وما إلى ذلك .. فمثل هذا حدث فى اليونان القديمة

ولقد ساهمت مدرسة الإسكندرية بأوفى نصيب فى درس الإلياذة والأوديسة ، وفرغ من تلاميذها الأفذاذ لكلتا الملحمتين عدد عظيم استطاعوا عرفان الزائف من غيره ، وكان إمام هذه المدرسة المؤرخ الناقد الكبير أرسطرخوس الذى وضع لنقد الأدب الهوميرى قواعده الرائعة

ويحددون عصر البطولة الذى وقعت فيه حوادث الإلياذة ثم حوادث الأوديسة بالقرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك أن القبائل اليونانية (الأيونيه والأيوليه والدوريه) كانت قد أخذت تنهض فجأة وتناضل فى سبيل مجدها وتناوئ الحثيين والمصريين على السواء ، وكان لا بد لها قبل كل شيء من أن تقهر طروادة المحصنة القوية الرابضة على ضفة الهلسبنت (الدردنيل) الشرقية ... وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ... وبعد أربعة قرون أو نحوها ، جاء هوميروس ليروى وقائع هذه الحرب فى منظومته الخالدة ، أو وقائع السنة الأخيرة من السنوات العشر من حصار طروادة — أو إليوم — كما كان يدعوها غالباً .

فالإلياذة من هذه الوجهة قصيدة حربية حافلة بأنباء المعارك ، تكاد تسمع صليل القتال وأنت تتلوها ، وتكاد تشرف منها على ميدان صاخب ثائر النقع ، شديد الروع ، فائر بالدماء ... وإذا كنت من رجال الحرب سرتك الخطط المرسومة والخدع المحبوكة ، وراعتك هذه الفيالق المجيشة تأخذ أماكنها ثم تتحرك كالموج ، ثم ترتد قطعة بعد قطعة وهى فى حالتى الكر والفر كالرجل الواحد ، أو كالبنيان المرصوص ... والإلياذة من هذه الوجهة أيضاً تصور لك حياة الجند فى الثكنات أبرع تصوير وأروعه ، كما تصور لك حياة البحارة والرياضيين والرعاة ورجال الجبال ... لكنها لا تبلغ من ذلك ما بلغته هسيود فى ملاحمه ، وذلك ما نرجئه لفصل آخر

الإلياذة وصف قوى لهذه المجازر التى نشبت بين جيل من الناس يسكن فى طروادة ، وبين جيل مختلف عن جيل طروادة ... لأنه جيل من أنسال الآلهة ، وذرارى أرباب الأولمب ، فيما تزعم أساطير اليونان ... جيل توالد من تزاوج عجيب بين هذه الأرباب الأولمبية وبين إنسيات فاتنات من بنات حواء ... فليس أخيل العظيم ولا أودسيوس ولا أجاممنون ولا منالايوس ولا ديوديميد ولا نسطور ولا أجاكس ولا أبطال أخايا[1] جميعاً أشباهاً لهكتور ولا باريس ولا أبيهما پريام ولا لأبناء طروادة ، لأن الأولين أبناء آلهة والآخرين أبناء بشر مثلنا

شخصيات عجيبة جداً تلك الشخصيات التى اخترعها هوميروس

(١) أخايا وهيلاس من أسماء اليونان القديمة . وأخايا أيضا مقاطعة بعينها من هذه البلاد

فهو لم يكتف بأن صنع للأغريق لاهوتا يعج بكل زوج من الآلهة بل زاح يزاوج بين تلك الآلهة وبين الناس ثم ينسل أولئك الأبطال العظام الذين دوخوا طروادة، وأرووا سوحها بالعزيز الغالى من دماء أبنائها

فالسيدة هيلين ، التى بسببها نشبت الحرب ، هى ابنة زيوس كبير الآلهة من ليدا التى أحبها الاله الأعظم فى غفلة من زوجه هيرا .

وأخيل — بطل الإلياذة — هو ابن پليوس ملك فتيا — لكن أمه عروس الماء الحسناء الفتان ذيتيس — التى استطاعت أن تزلزل قلب الإله الأكبر — زيوس — بجمالها الساحر ، وأن تجعله ، وهو سيد أولمب ، بعض عبادها ، كما استطاعت كذلك أن تسحر قلوب الآلهة الذين أهرعوا من كل مكان ليشاركوا فى زفافها ويشربوا النخب فى أكواب مما أهدى إليها الصب المدنف ، إله الخمر ، باخوس !

وأوديسيوس — بطل الأوديسة ، وثانى أبطال الإلياذة ، وصاحب فكرة الحصان الخشبى — يتصل بزيوس من أمه مايا — وكذلك ابنه تليماك

أما أجاكس ، وهو من أبرز فرسان الإلياذة وأشدهم بأساً ، فهو من حفدة دردانوس

وأجاممنون ، وأخوه منالوس ، هما ولدا أتريوس حفيد تنتالوس ، ذلك الملك القاسى المتحجر القلب الذى حاول مرة أن يطعم الآلهة من شواء صنعه لهم من بدن ابنه[1] . فكان جزاؤه النفى إلى ظلمات هيدز حيث قاسى الظمأ المضنى وهو غريق فى نهر من الماء العذب لا يصل إليه فوه ، وإن بينه وبين الماء لشبراً واحداً

وجميع الأبطال الآخرين هم حفدة الآلهة ، وأبناء السماء كما دعاهم هوميروس (الألياذة ج ٢ سطر ٥١٣)

على أن أبطال طروادة يعتون هم أيضاً بوشائج النسب إلى بعض الآلهة . فبريام وأبناؤه التسعة (هكتور وپاريس ... الخ) ينحدرون من أسلاف أجاكس (دردانوس)

وفى كثير من كتب الإلياذة مفاخرات عجيبة بالأنساب بين أبطال اليونان وأبطال طروادة ، إذ يرد الطرفان أصولها إلى الآلهة (إقرأ الفاخرة الجميلة بين أخيل وبين إيناس — إلياذة — الكتاب العشرون)[2]

بيد أن أبطال اليونان فى الإلياذة يبدون أكثر اقتراباً إلى الآلهة وأشد اتصالاً بهم مما تبدو العناصر المكونة لجيش طروادة

وكذلك الحال بين آلهة الأولمب ، فأكثرهم يعطفون على اليونانيين ويناضلون عنهم ، ويُسْدون لهم أحسن الجميل فيما تقتضيه معاركهم من تيسير وترشيد

أما طروادة ، فيعطف عليها أپوللو ، وتنحاز إلى صفوفها فينوس... أليس پاريس قد قضى بالتفاحة لها من دون هيرا ومينرفا ؟

لذلك تكاد تكون حرب الإلياذة قائمة بين قبيلين متفاوتين فى الطبائع ، فأحدهما أقرب إلى الآلهة منه إلى الناس ، والآخر أقرب إلى الناس منه إلى الآلهة ، وفى ذلك ما فيه من ميل هوميروس الذى يبدو هواه مع اليونانيين فى الإلياذة التى تملكها ، والتى هى من تمحيص اليونانيين من أهل أثينا والأسكندرية

على أن هذا الميل لم يكن حاداً أو مبالغاً فيه كما هى الحال فى القصص الشرقى الذى خلفته لنا عصور البطولة ومن نحو قصة عنترة أو أبى زيد أو سيف بن ذى يزن ؛ فالغالب فى هذه القصص أن يطبع الراوى ساميه بطابع خاص ، فيجعل هواهم فى جهة واحدة بحيث يطربون أبلغ الطرب وأشده إذا جال عنترة جولة فأطاح برؤوس مائة أو مائتين أو ألف أو ألفين . أو إذا انهزم الزناتى أمام أبى زيد . . . لا . . . لم يفعل هوميروس كما فعل هؤلاء ، فهو بالرغم مما جعل لأبطال الاغريق من شرف النسب وكرم الحسب ، وبالرغم مما أنهى به الإلياذة من فتح طروادة وإشمال النيران فيها وقتل أبطالها البارزين إلا أنه قد خصهم بنوع عجيب من البطولة يرفعهم درجات فوق الأبطال الاغريق . وذلك أنه جعلهم أناساً ، وجردهم فى المعمعة من هذه الحصانة الربانية التى خلعها على أخيل وغير أخيل ، ومع ذلك فقد صبروا وصابروا ولقوا جموع اليونانيين بمثل الشجاعة التى لقيهم اليونانيون بها ، فلم يجبنوا ، ولم يهنوا ، ولم يتخاذلوا عند اشتداد اللقاء ، وكانوا يَقتلون ويُقتلون ، وكانت الكرة تكون لهم مرة ولخصومهم مرة ... وكانت لهم مواقف عجيبة مشرقة تنتزع من القارئ استحسانه أو رثاءه ... وقد استطاع هوميروس أن يستدر دموع ساميه وهو يصور وداع هكتور لزوجه وولده ،

(١) أساطير الأغريق والرومان لجربر ص ١٤٣

(٢) تجد فى الكتاب الثانى للإلياذة أنساب معظم الأبطال اليونانيين الذين اشتركوا فى هذه الحرب وقد أورد الأستاذ جربر جدولا جنيالوجيا فى آخر كتابه هو أحسن ما وضع فى هذا الباب